
القسم الرابع

الجانب العسكري للرسول ﷺ

- الفصل الأول : النبي العسكري
- الفصل الثاني : نبينا والمعارك التي خاضها
- الفصل الثالث : المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

الفصل الأول: النبي العسكري

أ- أهداف الجهاد

لقد سد الله أمامه أبواب الجهاد المادي لبعض الوقت، وذلك تمشيًا مع طبيعة الأشياء، ولأن لكل شيء وقته المرهون به، ودام هذا لسنوات طويلة. وبعد لأي أذن الله تعالى بالنضال المشروع، وسمح لهم باستعمال القوة والدخول في الحروب قائلاً لهم: لقد آن لكم أن تدافعوا عن أنفسكم وعن حقوقكم. وقبل الدخول إلى هذا الموضوع العريض والعميق أود أن أقوم بشرح بعض الأمور التي تكون أساسًا لإثارة بعض الأسئلة أو الشبهات في بعض الأذهان.

وقبل الدخول إلى موضوع فطنة الرسول ﷺ في إدارة الجيوش وتعبئتها وسوقها وإدارتها، فمن المفيد التوقف قليلاً حول العهد الذي شُرع فيه الجهاد. فمن المهم جدًا معرفة المعنى العام للجهاد من جهة، ثم معرفة تاريخ بدء الجهاد المادي أي الأمر بالقتال من جهة أخرى. ذلك لأن أعداء الدين يقومون بتشويه معنى الجهاد، كما أن بعض الأصدقاء الجاحدين يقومون بخلط التواريخ، وبالتالي ببلبلة الأذهان، لذا فلا أرى بدءًا من القيام بتوضيح بعض الأمور لكلا الجانبين.

لم ينحرف الرسول ﷺ طوال حياته قيد شعرة عن مبادئ الإسلام، فحياته كلها كانت عبارة عن قيامه بتطبيق الإسلام في الحياة وصبه في الواقع العملي. وهذا ينطبق على موضوع الحرب والجهاد مثلما ينطبق على سائر المواضيع والمجالات الأخرى.

١. الدفاع

لقد أباح الإسلام للأفراد وللأمم حق الدفاع عن النفس ضد من يهدد كيانها ووجودها ضد القوى المعادية لها، بل حث على ذلك في بعض الأحيان. فإن أراد أحدهم التعرض لك ولمالك ولحياتك ولدينك ولعرضك تصدّيت له وجهًا لوجه، ودخلت معه في صراع مرير. لنفرض مثلاً أن أي دولة من الدول تجاوزت الحدود الفاصلة بينك وبينها ودخلت أراضيكم، فماذا تعمل؟ وإذا قامت بتحريض بعضهم في بلدك وأطلقتهم عليك فماذا سيخطر

على بالك؟ وإذا تعرض أبناء دينك في مكان ما إلى ظلم وإلى غدر فكيف ستتصرف؟ لاشك أنك لن تكتفي بالقول "لا شيء، لن أعمل شيئاً".

وانطلاقاً من هذه النقطة فقد وضع رسول الله ﷺ كيفية استعمال القوة داخل إطار من الانضباط قبل أربعة عشر قرناً. فأشار إلى ضرورة استعمال القوة إن اقتضى الأمر بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد إن أراد المسلم أن يحيا حياة كريمة وحياة عزيزة. أجل على المسلم أن يكون قوياً، وأن يستعمل القوة في سبيل الحق، وأن يُسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلاً للتوازن الدولي.

٢. ردع الظلم

هناك الكثيرون ممن لحقهم الظلم والحيث والغدر في هذا العالم. ونحن نظن بأننا عندما نبسط حمايتنا عليهم، أو عندما نسجل بعض النجاح على المستوى السياسي لصالحهم نكون قد حللنا الموضوع. صحيح أنه قد يُعد هذا أمراً معقولاً بنسبة معينة.. أجل، إننا نفتتح صدورنا لإخوتنا في القومية وفي الدين ونحاول أن نحل بتضحياتنا بعض مشاكلهم، ولكن لا أدري أي جزء من هذه المشكلة ننجح في حله. فبالقرب منا هناك ما يقارب ١.٥-٢ مليوناً من الذين تعرضوا للظلم والقهر والذين مُنعوا من أداء شعائرهم الإسلامية ومن استعمال أسمائهم الإسلامية.. فإن استطعنا أن نفتتح صدورنا لنصف مليون منهم فإن مليوناً أو أكثر سيقون هناك تحت وطأة الظلم.^(١) فإذا كنا عاجزين عن حل مشكلة صغيرة أمام دولة صغيرة فكيف نستطيع التصرف إذن، أمام المشاكل العديدة للدنيا والمتعلقة بنا عن قريب؟

إذن، يجب أن تكون هناك دولة إسلامية بحيث يحسب الكل حسابها، وعندما تقطب حاجيها أو عندما تغضب قليلاً يرجع الآخرون إلى صوابهم ويعرفون حدودهم. وهذه القوة التي ترهب الآخرين يجب أن تكون متوفرة وموجودة على الدوام لكي يتسنى الإسراع لنجدة المظلومين والملهوفين ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يكون بإظهار هذه القوة الكبيرة أحياناً كلما استوجب الأمر. وقد تم هذا في الماضي بهذه الصورة، فعندما كنا نقوم بمهمة تمثيل هذه الوظيفة في التوازن الدولي، كان يكفي أن نعلن "أن الأسطول العثماني السلطاني متوجه الآن نحو المحيط الهندي." كان هذا الإعلان كافياً لكي يخيف إنكلترا التي كانت تبنت النية لاحتلال الهند ويجعلها تنكص على عقبيها. أجل، لقد كان ثقلنا كبيراً في التوازن الدولي في تلك العهود. وبفضل هذا الثقل الكبير، وبفضل دور الحكم الذي كنا

^(١) إشارة إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في بلغاريا عام ١٩٨٩ ضد المسلمين.

نلعبه كان المظلومون والذين أصابهم الحيف أو الغدر يهرعون إلينا لإحقاق الحق وإبطال الباطل في عالم واسع يمتد من فرنسا إلى الهند.

أجل، لقد شرعت الحرب في الإسلام من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، فإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ لقد أناط بنا الله ﷻ مهمة إحقاق الحق في العالم. لذا، علينا أن نفهم أن احتلال مثل هذا الموقع هو هدف وجودنا، وأن نفهم هذا ونحاول الوصول إليه وتحقيقه، وإلا فإن الظلم سوف يستمر.

٣. حرية الدعوة

إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فإن الإسلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينها. يرجى الانتباه هنا رجاء.. نحن لا نقول بأن الحرب تكون من أجل نشر الحق والحقيقة، بل نقول إن تمت الحيلولة دون حرية نشر الحق والحقيقة عند ذلك يتم إعلان الحرب. فإن كانت لك جيوش لنشر رسالة الإسلام في أرجاء الدنيا كلها، فإن رجال الإرشاد عندك سيقومون بإيصال رسالة الإسلام إلى كل فرد. فإن قام الآخرون بالحيلولة دون هذا، عند ذلك يجب عليك رفع هذه الحوائل والعوائق، ذلك لأنهم يحولون دون سلوك الآخرين طريق الجنة بإرادتهم الحرة. لذا، تقع عليك وظيفة المحافظة على حرية التفكير وإزالة الموانع وكل أشكال المقاومة ضد هذه الحرية. وبنسبة نجاحك في تأمين هذه الحرية تكون نسبة نجاحك في نشر دينك.

٤. أسس إنسانية

فإذا ما قمت بهذه الحرب للحفاظ على الحرية عليك ألا تجرح الكرامة الإنسانية والشرف الإنساني وألا تتعرض للأطفال والنساء ولا للمعابد ولا للربان أو للذين نذروا أنفسهم للعبادة والطاعة، وألا تتعرض لغير المحاربين. ومعلوم لدى الجميع كيف أن الوضع الحالي في هذا المجال لم يصل بعد إلى هذا المستوى، بل هو تحته بكثير. ولا أدري هل يكفي قولنا "تحتة بكثير" في وصف من أسقطوا القنابل النووية على رؤوس المدن الأهلة بالسكان؟ لا أظن هذا.. أجل، فبالأمس القريب فجروا القنابل النووية فوق مدينة "هيروشيما" و"ناغازاكي" فقتلوا في كل منها أكثر من ثمانين ألفاً من السكان المدنيين وخلفوا عشرات الآلاف من المصابين والمعوقين والمشوهين. هذا هو ما عمله مدعو المدنية الحالية.

ثم انظروا إلينا.. كان رسول الله ﷺ وكل خليفة يوصي القائد الذي يرسله للقتال بأن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة وألاً يتعرضوا للرهبان الذين نذروا أنفسهم للعبادة، وألاً يهدموا معبداً ولا يقطعوا شجرة وألاً يبذروا الثروات.^(١)

ولا أدري أمن الممكن للذين فجروا القنابل بكل وحشية على رؤوس المدنيين الآمنين أن يراعوا هذه الوصايا وأن يطبقوها؟ إن الحسرة تملأ قلب الإنسان وهو يشاهد الفراغ الكبير الحاصل في التوازن الدولي نتيجة لعدم وجود الناس المؤمنين ضمن هذا التوازن، ولو كنا نحن إحدى القوى الكبرى لما كان هناك كل هذه المظالم وكل هذه الآلام. وأنا أسألكم الآن ألا تبرر هذه النتيجة وحدها الجهاد وتجعله ضرورياً؟ أجل، إن هذه الغاية تبرر الخروج للجهاد في سبيل الله، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ.

ولأنني قمت بتحليل هذا الموضوع العميق والواسع في كتاب سابق، فإنني أكتفي هنا بهذا القدر وأحيل القراء إلى ذلك الكتاب.^(٢)

لم يرقم الرسول ﷺ طوال العهد المكي بأي مقاومة مادية وبأي نضال مادي، إذ كان ينصح من حواريه على الدوام بالتزام الهدوء والسكينة والصبر والثبات. واكتفى فقط باستعمال دساتير القرآن الماسية، وصرف جهوده طوال ثلاثة عشر عاماً في مخاطبة القلوب وأسر النفوس. أجل، فطوال ثلاث عشرة سنة حصر جهوده كلها في التبليغ بمنطقه وبكلامه وبخطابه الساحر المبارك الذي يقلب الفحم ماساً والتراب ذهباً. فلم يقابل الأذى بالأذى ولا السباب بالسباب، بل خاض أودية الآلام والأذى بصبر لا ينفد. كان المؤمنون يعذبون أمام عينيه ويقتلون، فكان يعتصم بالصبر ويتحمل هذه الآلام إضافة إلى تحمل آلامه الخاصة. فمثلاً عندما كان يمر بآل ياسر والمشركون يصبون عليهم ألوان العذاب كان يقول لهم مواسياً: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».^(٣)

كان هذا مبلغ صبره وتحمله، ومع ذلك فلم يكن لغيظ الكفار وحقدهم نهاية وحداً. فما كان أمام رسول الله ﷺ سوى التخطيط لإبعاد المسلمين عن مكة وإصدار الأمر إليهم بالهجرة ومفارقة بيوتهم التي ترعرعوا وعاشوا فيها ردىاً من الزمن بكل أمن، ومفارقة أحبائهم من الأولاد والأهل والأقرباء.

(١) أبو داود، الجهاد ٨٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠٠/١.

(٢) هو الجهاد أو إعلاء كلمة الله ولم يترجم بعد.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣٤٢/١؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ٢٩٣/٩.

وهكذا بدأ المسلمون الأوائل بالهجرة.. وكان عمر ﷺ ضمن هؤلاء، ولكن هجرته كانت هجرة أليمة، إذ لم يكن معه لا أولاده ولا زوجته.. كان يهاجر وحيداً،^(١) إذ كان هذا هو الخيار الوحيد لديه. وعندما هاجر أبو بكر ﷺ لم يصحب معه ابنته عائشة رضي الله عنها -الذي كان يخاطبها بعد زواجها من رسول الله ﷺ بـ"يا أمنا" مع أنها كانت صبية يافعة آنذاك- إذن، أين كانت؟ لا ندري، ذلك لأن الهجرة كانت تتحقق بهذه الصورة، ولم يكن هناك خيار آخر.

أجل، كان الجميع يتركون أوطانهم وبيوتهم ويضطرون للهجرة. وفي أحد الأيام مر عُتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عُتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً، ليس فيها ساكن. فلما رآها كذلك تنفّس الصعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالّت سلامتها يوما ستُدرِكها النُكْبَاءُ والحبوب^(٢)

ثم قال عُتبة بن ربيعة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها! فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلٍّ بن قُلٍّ^(٣)؟

كلا، لم يكن الرسول ﷺ مسؤولاً عن هذا، بل كان وزر هذا يقع على كاهل الظالمين والغدارين الذين أخرجوا هؤلاء من مساكنهم ومن بيوتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها وسرى ظلمهم حتى إلى حيواناتهم. إذن، فحتى الكافر كان يذرف الدموع على ظلمهم أنفسهم.

اضطر المسلمون إلى قطع طريق يبلغ طوله خمسمائة كم تقريباً دون زاد ولا معين وفي وسط الجو اللاهب للصحراء.. كان قطع هذه المسافة آنذاك يستغرق شهراً كاملاً. وكان عليهم أن يقطعوا هذه المسافة، وليس عليهم في سفرهم وقيامهم ومنامهم سوى ملابسهم التي على أجسادهم. ليس هذا فحسب، إذ ما كان أحد منهم يعرف ماذا يأكل أو يشرب طوال هذا السفر المضني. اضطر هؤلاء المهاجرون -الذين عاشوا في المدينة المنورة فيما بعد بكرامتهم- أن يلجأوا إلى "الأنصار"، وكان هذا عذاباً آخر بالنسبة لهم، غير أن ذلك المجتمع الطاهر من الأنصار فتح صدره مرحباً بهم دون أن تبدر منه كلمة شكوى واحدة.. لماذا؟ لأن النبي ﷺ كان يقول لهم اصبروا وصابروا فالجنة موعدهم. كان

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١١٨/٢؛ السنن الكبرى للبيهقي ١٣/٩؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ٦١/٦.

(٢) الحوب: التوجع.

(٣) القُلُّ: الواحد.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ١١٤/٢-١١٥.

الرسول ﷺ يتصرف حسب أوامر الله ﷻ ولم يكن لهواه أو لمشاعره أي دخل في هذا. ومع كل هذه الآلام التي تجرّعها المسلمون حيث هجروا أو طانهم ومساكنهم وأولادهم وغدّب قسم منهم حتى فارق الحياة لم تكن كل هذه الآلام كافية في نظر المشركين الظالمين، أو كافية لتهدئة حقدهم، إذ اتخذوا قراراً في أحد الأيام أن يضعوا أيديهم على أموال المسلمين وأموالهم وأراضيهم ويقسموها فيما بينهم إلى درجة أن أسامة بن زيد سأل رسول الله ﷺ عندما دخل مكة منتصراً بعد ثماني سنوات: يا رسول الله، أين تنزل غداً؟ فأجابته الرسول ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»^(١)

أي أنهم لم يتركوا لرسول الله ﷺ بيتاً يستطيع أن يسكن فيه ويجد فيه راحته. كان عقيل أكبر أولاد أبي طالب، وعادى الرسول ﷺ حتى يوم إسلامه الذي تأخر، ووضع يده على أملاك الرسول ﷺ وكأنه وارثه، فقد كان شعور الوفاء عنده ضعيفاً. كما تم تقسيم أملاك الجميع بعد الهجرة.

وقد انتهز المنافق ابن أبي ما جرى في مكة من هذا الأمر فجاء إلى المدينة وأخذ يصيح في سوقها: يا معشر المسلمين! أنتم جالسون هنا وأموالكم في مكة نهب، يتقاسمون أموالكم في الأسواق، سيأتي يوم لا تملكون لا هنا ولا هناك شيئاً.

كان هذا ظلماً من نوع آخر.^(٢) وكأن كل هذا لم يكن كافياً، لذا نرى أن قافلة للمشركين تحمل أموال المسلمين تتوجه إلى الشام وتمر بالقرب من المدينة عن قصد وكأنها تقول للمسلمين "انظروا وموتوا من الغيظ." ولم يكتفوا بهذا بل ساقوا أمامهم إبل وأغنام المسلمين. هكذا كانت طبيعة النهب عند الكفار. والحقيقة أن ما جرى ويجري في عالمنا اليوم لا يقل عن هذا، لذا نرى الشاعر محمد عاكف^(٣) يقول:

يقولون إن التاريخ يكرر نفسه أكان التاريخ يكرر نفسه لو اعتبرنا به؟

فها هم المؤمنون يتعرضون الآن لمختلف أنواع الظلم والقهر، والذين يساندونهم يتعرضون أيضاً لمختلف أنواع المضايقات والمحن بل يحرمون من أوطانهم ومساكنهم بل حتى من حقهم في الحياة.

(١) البخاري، الجهاد ١٨٠؛ مسلم، الحج ٤٣٩؛ أبو داود، الفرائض ١٠؛ فتح الباري لابن حجر، ٥٢٨/٣.

(٢) سنتناول هذا الجانب فيما بعد عند تناول الحكم في سيرة الرسول ﷺ.

(٣) محمد عاكف أؤشوي (١٨٧٣-١٩٣٦) شاعر تركي، صاحب النشيد الوطني التركي.

والآن اسمحوا لي بأن أسأل مرة أخرى: لو كنتم في مكانهم فماذا كنتم صانعين؟ ولا تنسوا أن آلافاً من الصحابة كانوا مشيعين بالإحساس نفسه ونفوسهم مجروحة، ففي كل يوم كانوا يتلقون طعنة مسددة إليهم. ولو أن السماء أطالت المهلة ولم تسمح لهم برد العدوان لأحسوا بالانكسار في قلوبهم، ولكن الرحمة الإلهية هلت وتكلمت وأسرعت إلى نجاتهم: ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

أجل، لقد تعرضوا لمختلف أصناف الظلم، بل حرموا حتى من حق الحياة، والآن أعطي لهؤلاء الذين لوحقوا وعُذِّبوا وقتلوا.. أعطي لهم حق الدفاع عن أنفسهم وحق محاسبة الأعداء. وكان مناط الحكم أنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، أي أنهم تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتهم وأطفالهم حيث وقعوا في الأسر وفي الظلم، فقد كان هناك من قضى ٧-٨ سنوات وهم مقيدون بالسلاسل. إذن، فقد صدر أخيراً الإذن بالقتال لحفظ حقوق هؤلاء المظلومين والمغدورين الذين أصابهم ظلم كبير وحيث شديد، وفي الوقت نفسه فقد كان الرسول ﷺ يؤمر بالجهاد.

لم يكن الإسلام دين سيف ودماء كما ادعى بعض المنافقين والجاهلين. صحيح أن الرسول ﷺ استعمل السيف، فقد أخبر الأنبياء بصفته هذه من قبل، فالسيد المسيح عليه السلام عندما يتكلم عنه يقول: "صاحب التاج والمعراج واللواء والقضيب"^(١)، فعندما يستلزم الأمر سيقاتل من يستحق القتال. ويقول أيضاً: "معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك."^(٢) ذلك لأن راياتهم ستخفق في أرجاء المعمورة كلها وسينضوى تحتها الكثيرون وسيناضلون من أجل الحق وفي سبيله. أجل، إن هذا الروح المبارك الذي تسرب حتى إلى رايتم وعلمكم، وهذا المعنى المقدس تبلور في أيديهم في ذلك العهد، فكان مشعلة أضواء أرجاء الأرض.

تحت هذه الظروف أمر رسول الله ﷺ بالجهاد والنضال ضد أعدائه. كأنه كان يقول لمعاصريه المعاندين: "ليس بوسعكم منع حرية الفكر، ولن تستطيعوا سد الطرق المؤدية إلى الإنسانية." ونحن لا نزال نصفق للثورة الفرنسية، ونعدها باباً مفتوحاً للحرية مع أنها حفلت بآلاف من مشاهد القتل والوحشية وذبحت آلاف الأشخاص بسكين المقصلة، وبدا

(١) الشفاء للقاضي عياض، ٢٣٤/١.

(٢) الشفاء للقاضي عياض، ٢٣٥/١.

وكان الثورة تأكل نفسها إلى درجة أن "روبسيار" عندما أرسل "دانتون" إلى المقصلة سأله: "ما آخر أمنيته؟" فأجابه "دانتون": "ليست لدي أمنية، لأن رأسك ورأسي سيكونان معاً في سلة المقصلة."

هذا هو الوجه الحقيقي للثورة التي قيل إنها فتحت أبواب الحرية، وهذه هي وحشيتها وبربريتها.. لم يتخلص أحد من وحشيتها.. قتلت الملك أولاً ثم أنصاره ثم الآخرين.

بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرناً بتمزيق حجب الظلام وإزالة الاستبداد والظلم وتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لا يمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين. فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليك باستعمالها. ولكننا لا نستطيع ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول ﷺ عندما جاء أو أن استعمال القوة والظروف المناسبة له استعمال القوة بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان. كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقبة هناك وبناء بنايات من جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية".

لِيلعن الله مثل هذه النظم، ولتَنخسف إلى أسفل السافلين! وهي قد خسفت فعلاً إلى أسفل سافلين لأنها مغايرة لفطرة الإنسان. وكل نظام غير طبيعي لا يراعي الفطرة ولا يستند إلى الحق ولا يعطي الحرية للأفكار وللبادئ التي تمثل الحق فإن مصيره إلى الزوال.

أجل، لقد قام الرسول ﷺ بمناوشة أعدائه طوال عشرة أعوام لكي يضع أسس حقائق عديدة.. حقائق ملء الأرض. وفي جميع حروبه هذه لا يعطي سوى مائة ونيف من الشهداء فقط من الجانب الإسلامي. هذا من الجانب الإسلامي، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فلا أعلمه. بينما كان عدد الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً حسبما ذكرنا سابقاً. ولا يشمل هذا الرقم الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين ماتوا فيما بعد. لذا، فإن العهد النبوي يُعد عهد احترام إنسانية الإنسان واحترام أفكاره ومشاعره. ولم تصل دعوة "الإنسانية Humanizm" إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبداً. ذلك لأن الرسول محمداً ﷺ هو صاحب ذلك العهد. والمؤمن -حسب تعليماته- يقاتل ويحارب،

ولكنه لا يسد أبدًا أبواب الصلح، ولا يزيّف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أي إنسان دون سبب ودون حق، ولا يحتل البلدان الأخرى ولا يمتص خيرات الأمم الأخرى.

٥. السلم هو الأساس في الإسلام

لم يعرف الغرب -لا في الماضي ولا في الحاضر- القيم الإلهية، لذا قام باحتلال البلدان ووضع يده على ثروات تلك البلدان ما ظهر منها وما بطن، واستعبد أهلها وسكانها وشكل المستعمرات. حارب في هذا السبيل، وأراق الدماء في سبيل هذه الغاية. لقد كان هذا هو الهدف الحقيقي لحروب البلقان وللحرب العالمية الأولى والثانية ولحرب واحتلال بلدان الخليج والصومال. أما الحرب في الإسلام فتكون من أجل غاية سامية ومن أجل حرية الفكر والاعتقاد ومن أجل فتح الطرق المؤدية إلى القيم الإنسانية. ومع ذلك فيجب ألا يهمل الإتجاه نحو السلم كلما استوجب الأمر، ذلك لأن السلم هو الأساس وهو الأصل، أما الحرب فأمر استثنائي. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

هذه الآيات وأمثالها تدعو المسلمين إلى السلم وإلى الصلح، فإن كانوا في الحرب فهي تدعوهم إلى الاعتدال وإلى الاستقامة. أما النظم الأخرى فالحرب عندها ميدان وحشية، بل إن فترات الصلح عندها لا تختلف كثيرًا عن فترة الحرب. ومهما اختلفت أسماء هذه النظم فهي ليست سوى نظم لتضليل البشرية، ونظم شيطانية مهما إشعل الفتنة والاضطرابات. فالشيطان يزين هذه النظم ويجعلها في صور براقعة لخداع أنصارها، ذلك لأنه عدو مبين للإنسان، لذا فسيحاول إبعادك عن ذاتك وعن نظرتك لتاريخك وفلسفة هذا التاريخ ومعناه.

أجل، يجب أن يكون السلم والصلح نصب عين المؤمن حتى وهو يقاتل. وقد يقاتل المؤمن المؤمن، وهنا أيضًا لا بد من الصلح: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

فإن اشتبكت طائفتان من المؤمنين وتعرض الوطن وتعرضت الأمة إلى خطر الانشقاق والتمزق، وبدأ الاضطراب الداخلي ينتشر في البلد.. في هذه الحالة يجب محاسبة المقاتلين حتى وإن كانوا مؤمنين، وبذل كل الجهود لتأمين وحدة الإسلام والمسلمين ووحدة الوطن والأمة. هذا هو ما يريده القرآن، ولكن أين نحن من هذا؟ إن ماضينا القريب ليس مما يشرح

الصدور.. يُقال "إن اليأس يمنع كل كمال" والذي يقع في اليأس لا يستطيع أن ينتصب واقفًا على قدميه، وهو مستنقع يغرق من يقع فيه. ولكن من الصعب أن يكون الإنسان متفائلًا مع وجود كل أسباب الفرقة هذه. أجل، إن المؤمنين هم شهداء الله في الأرض، وعنصر توازن بين الأمم، وضمان للتناسق العام، لذا فلهم حق التدخل في كل شيء ولدى الجميع في سبيل تأمين الحق والعدالة. فإن اضطربت الأمور في بلدنا أو في بلد آخر إلى درجة استدعت التدخل وكنا نملك القدرة على التدخل، فإن من واجبنا التدخل لتأمين الهدوء والاستقرار. فإن تقرر التدخل وتقررت الحرب تم التوكل على الله والسير في الطريق الذي نعرف أنه الطريق الحق، إذ ألا يقول الله تبارك وتعالى حول النهاية الحزينة لمعركة أحد ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

أجل، إن كانت الملابسات والظروف تشدك نحو الجهاد المادي، أي إن حيل بينك وبين حريتك في نشر دينك، أو إن لم يكن هناك من يوقف الظلم الواقع على المظلومين وعلى المغدورين، ولم يكن هناك من يُنهي أُنينهم وشكاواهم، أو لو كان هناك من يستعمل القوة لمنعك من نشر الحق، أو لو اعتدوا على حرمة وطنك وهددوا حياتك.. عند ذلك آن لك أن تبرز لميدان القتال وأن تشمر عن ساعدك للقتال وللجهاد.

ب- التهيؤ الجيد

عندما تستوجب الظروف الخروج إلى ساحة القتال، يكون من الواجب التهيؤ لذلك الأمر على أفضل وجه. وأول ما يجب الاهتمام به هو القوة المعنوية. والمتخصصون في العلم العسكري يعلمون جيدًا الدور المهم للقوة المعنوية في الحروب، لذا يبدون اهتمامًا فائقًا بها. ولا شك أن الإيمان هو منبع ومستند القوة المعنوية، ولا يمكن أن تتوقع الشيء الكثير في ميدان القتال من امرئ لا يملك نصيبًا من الإيمان في قلبه.

١. القوة المعنوية

إليكُم بعض الآيات التي تقوي الروح المعنوية للمؤمن وتهيئه للقتال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥)، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، ﴿وَلَا تَهِنُوا

وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ (آل عمران: ١٣٩)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

والمبدأ الذي يترشح من هذه الآيات هو أن "الحق يعلو ولا يعلو عليه". هذا هو الشعور الذي يملأ قلب المؤمن وهو مقبل على القتال، إذ يكون قد تحصن بقلعة من الإيمان لا يمكن تخطي أسوارها. هكذا كان الرسول ﷺ ينفث مثل هذا الإيمان ومثل هذا الشعور بالاطمئنان في قلوب جنوده وأبطاله وهو يعدهم ويهيئهم للقتال.

كان هؤلاء هم الأبطال الذين يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، ويفتشون عنه لأنهم يعلمون أنه المفتاح السحري الذي يفتح لهم أبواب الجنة، ويتساءلون "ثرى أين سأتوضأ بدم الشهادة وألقى ربي؟" يتساءلون هكذا ويفتشون عن الشهادة في ميادين القتال.. كان قلب كل بطل من هؤلاء الأبطال يفور بهذا الشعور.. إذن، فهل من الممكن أن يقف أحد أمام أمثال هؤلاء الذين يستخفون بالموت؟ لقد كان الأعداء يرون هذا فلا يملكون سوى الفرار من أمامهم.

٢. تكوين قوة رادعة

والناحية المهمة الثانية هي عزم الرسول ﷺ على جعل أمة قوة يُرهب جانبها في التوازن بين الدول، وقوة يحسب حسابها، ذلك لأنك إن لم تصل إلى مثل هذه القوة لم يبال بك الآخرون، بل ربما تدخلوا في شؤونك وسخروا منك، واتخذوا القرارات دون أن يحسبوا حساباً لك، بل ربما اتخذوا قرارات رغماً عنك وخارج إرادتك وأجبروك على تطبيق هذه القرارات. ويرجع سبب هذا إلى عدم تملكك قوة وثقلاً كافياً في التوازن الدولي أمام القوى الكبرى، بينما يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤١). أي لا يوجد هناك سبيل لكي يكون الكافر أعلى من المؤمن. أي يجب ألا يحكم أي مجتمع نصراني أو يهودي أو وثني أو رأسمالي أو ملحد أو شيوعي مجتمع المسلمين. وفي الحقيقة لم يستطيعوا حكم المسلمين الحقيقيين، لأن الله تعالى لن يسمح بذلك. فكأنه يقول لقد سددت أمامهم هذا السبيل. والمؤمن لا يستطيع العيش تحت تحكم وتعت الآخرين، وهو لا يستطيع العيش مستنداً إلى غير الله تعالى، إذ لا يليق به ذلك، ولا يرضى أن يكون في يد الظلم كالفأرة في يدي القط.

أجل، إن المؤمنين سواء في مستوى الفرد أو في مستوى المجتمع أو في مستوى الأمة هم أصحاب مزايا عالية، ويجب أن يبقوا في الأعالي. وقد رسم الرسول ﷺ لأمة هذا

الهدف وكأنه يقول لهم ليس لعلوكم حد معين. فإن لم تكونوا أصحاب قوة في الأرض تم سحقكم، أو كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو داود وأحمد بن حنبل: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»^(١) أي يتداعون عليكم وعلى النعم التي أنعمها الله تعالى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أو تستطيعون أن تقولوا بالتعبير الحالي إنهم لا يتداعون عليكم في كركوك وفي داغستان وفي سورية وفي ليبيا وفي مصر على البترول وعلى الثروات الأخرى من كل جانب.

لقد أصبحت نعمنا محط أنظار الأجانب وطمعهم، حتى لو أن دولة فتحت مدرسة في مكان ما، أثار هذا شهية الآخرين ودفعتهم إلى فتح مدارس لهم أيضًا. وهم يقولون "علينا أن نفتح مدارسنا هناك باسم مصلحتنا، فمن يدري ماذا سيحصل" إلى درجة أنه كانت هناك ثلاثة مدارس أجنبية مختلفة حتى في أصغر مدينة تقوم بالتدريس باللغات الأجنبية، وكانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدرسة أجنبية في تركيا هي بمثابة عيون ومراصد للجهات الأجنبية وبمثابة رواد للاستعمار الثقافي. وإلا فماذا كانوا يعملون في تركيا وماذا كانت غايتهم؟ ألم نكن قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا؟ وماذا كان السبب الحقيقي لوجود هذه الفيروسات في دمننا وانتشارهم في عروقتنا وإعلانهم النفير العام الثقافي ضدنا وتوغلهم في مفاصل إدارتنا؟ لم يكن ذلك حبا في سواد عيوننا.. كلا، بل لكي يقرضوا بأنيابهم عالمنا الروحي ويبردوه بمباردhem الحادة، وفي كثير من الأحيان نجحوا في هذا. فقد اتفقوا ضدنا في أثناء حرب البلقان ورمونا عن قوس واحد. وفتحوا أبواب البلاء علينا في الحرب العالمية الأولى، وحاولوا أن يقحمونا في أتون الحرب العالمية الثانية، ولكن الله سلم هذه الأمة وأوصلها إلى هذا العهد. لماذا كانت كل هذه المصائب؟ ذلك لأننا كأمة فرطنا في وصايا الرسول ﷺ ولم نصل إلى المستوى الذي أرادنا أن نصل إليه، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

لقد فهم المسلمون الأوائل هذا الأمر جيدًا. يقول مولانا الشبلي وهو يحلل حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه بينما كانت الحروب قائمة مع الأعداء في جميع الجبهات كان هناك عدد كبير من الخيول غير المشتركة في الحرب إضافة إلى الأعداد الكبيرة المشتركة في الحرب من الخيول والجمال. فمثلاً كان هناك أربعون ألفاً من الخيول الجيدة في مزرعة خارج المدينة المنورة لم تشترك بعد في أي حرب.

^(١) أبو داود، الملاحم ٥: المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥.

كما كان هناك أربعون ألفاً من الخيول قرب سورية كاحتياط. هذه الخيول لم تكن تشترك في الحرب، بل كانت تربي من أجل الطوارئ وكاحتياطي فقط.^(١) إذن، فقد تهيأوا مثل هذا التهيؤ ضمن الإمكانيات التي أنعمها الله عليهم آنذاك، والحقيقة أن من الممكن فهم وجوب اتخاذ أمثال تلك الحيلة والتهيؤ من كلمة "الرباط" الواردة في الآية الكريمة. ذلك لأن الرباط في معناه العام هو وضع كل العناصر الضرورية من حيوان أو إنسان أو أدوات ورصدها ووقفها للحفاظ على أمن الأمة الإسلامية. والقرآن يشير إلينا بالوصول إلى هذا الهدف وكأنه يقول: احفظوا دينكم ولغنتكم وشرفكم وعرضكم وكرامتكم ووطنكم وكل مقدساتكم من الأعداء الذين ينظرون إليها نظرة خيانة وطمع. وأعدوا لهم كل ما يلزمكم من القوة لتحقيق هذا، ولا تقصروا في هذا الأمر أبداً، ولا تعطوا أعداءكم أي فرصة أو مجال، لا تعطوا أعداءكم مثل هذا المجال لكي لا تكونوا لعبة بأيدي الآخرين.

٣. استعمال السيف حين الضرورة

كما يوصي القرآن الكريم باستعمال القوة لإسناد الحق والحكمة في التوازن العالمي، فإن محمداً ﷺ رسول جاء بشرعة الحرب، فقد جاءت صفته في الإنجيل بأنه "صاحب القضيب"،^(٢) فهو يقوم بنشر الحق، إلا أنه يستعمل القوة ويستعمل السيف إن تم الوقوف في وجه نشر الحق والحقيقة، فهو رسول السيف أيضاً. ولأنه رسول السيف أيضاً فقد علمه الله تعالى في القرآن تكتيك الحرب أيضاً، فالقرآن يخاطبه في إحدى الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيَّانٌ مَرْصُوضٌ﴾ (الصف: ٤).

أي لتكون صفوفكم متراسة وملتحمة بعضها ببعض ومرتبطة بقوة. بحيث لا يستطيع العدو النفاذ من خلالها. وقد كان هذا التراص أفضل ترتيب للصفوف في القتال آنذاك، ذلك لأنها كانت تُرهب العدو وتلقي في قلوبهم الرعب، وقد استعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في حروبه وانتصر.

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الأمر -أي القتال في سبيل الحق- اهتماماً كبيراً، بحيث أنه ما إن أبدى بعضهم بعض الثاقل وبعض الكسل في هذا الأمر حتى جاء الزجر الشديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى

(١) عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لثبلي النعماني، ١٤٤/٢.

(٢) الشفاء للقاضي عياض، ٢٣٤/١-٢٣٥.

الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا تَتَفَرَّغُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٣٨-٤٠﴾.

أجل، فكما أنه نصر رسوله في وقت لم تقوموا أنتم بنصرته، وعاونه في وجه جميع القوى الشريرة، فكذلك سينصركم على قدر إخلاصكم وبقدر صدقكم.

وفي ضوء نور القرآن الكريم كان الرسول ﷺ يرشد على الدوام أمته إلى هذا الطريق. لذا، فما كان من المتوقع أن تغلب مثل هذه الجماعة ولا أن تدوسها الأقدام. ولم تغلب في الحقيقة ولم تُدس، إذن، يجب على المسلمين لكي يكونوا منظمي التوازن في العالم أن يكونوا متهيين على الدوام وعلى أهبة الاستعداد في كل آن، وأن يكونوا في جبهة القتال متى ما دعا الأمر إلى ذلك. وأي تصرف مضاد لهذا يعد ذنباً وإثمًا يجب الاستغفار منه والتوبة عنه. وهاكم المثال من العهد النبوي: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

ج- شعور الطاعة

الطاعة مهمة جداً، والأهم منها هو تنمية شعور الطاعة في مثل ذلك المجتمع البدوي. أجل، ففي ذلك المجتمع الجاهلي لم يكن أحد يصيخ سمعه لأحد ولا يعيره اهتماماً ولا التفاتاً. ولكن الرسول ﷺ تدرج معهم وعلمهم الطاعة شيئاً فشيئاً إلى درجة أنه عندما جعل شاباً يافعاً بعمر ثماني عشرة سنة قائداً في حملة يوجد فيها أبو بكر وعمر وعلي ﷺ وغيرهم من كبار الصحابة لم يصدر أي اعتراض عدا اعتراض شخص أو شخصين.^(١) إذ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٦)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

لقد استقر مفهوم الطاعة بين الصحابة إلى درجة أن أبا بكر ﷺ مع كونه خليفة

(١) البخاري، الأحكام، ٣٣، مسلم، فضائل الصحابة ٦٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٦/٦.

للمسلمين طلب من القائد الشاب أسامة السّماح لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه ليكون بجانبه ليستشيريه ويكون وزيراً له.^(١)

لماذا كان الخليفة يستأذن؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ عين أسامة قائداً، لذا يجب إطاّعه. وقد ركز الرسول ﷺ على موضوع الطاعة حتى وفاته، لأنه يعلم أن عدم الطاعة سيفتح الباب على الاضطرابات وعلى الفتن. ونجح في ذلك نجاحاً لم يكن من نصيب أحد قط إلى درجة أن عبد الله بن حذافة السهمي - وكان على رأس حملة من المسلمين - عندما أمر أتباعه أن يرموا أنفسهم في نار أوقدها حاول بعضهم إلقاء نفسه فعلاً في النار. بينما كان هذا انتحاراً، لذا قال بعضهم: "إنما تبعنا النبي ﷺ فراؤاً من النار، أفندخلها؟" وقال الرسول ﷺ: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً. إنما الطاعة في المعروف».^(٢)

أجل، كانت الطاعة عميقة إلى هذا المستوى. كانت ضربات السيوف تنهال على الرؤوس فلا يفكر أحد بالتراجع لأن الأمر بالتراجع لم يصدر بعد من القائد، ولو كان العكس وارداً وتصرف كل مقاتل حسب رأيه لما بقي أثر للوحدة وللتضامن، فيكون الرأس قدماً وتكون القدم رأساً. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

د- النبي العسكري والخطط المختلفة

كان الرسول ﷺ كأي عسكري جيد يغير خططه على الدوام. والخطّة التي يستعملها مرة لا يطبقها مرة أخرى في العادة. لذا، كان خصومه يتخبّطون أمامه. وكان أسلوب "الكر والفر" الذي يستعمل في أيامنا بكثرة، ولكنه لم يكن معروفاً آنذاك، أي الهجوم ثم الانسحاب، ثم الهجوم من موضع لا يتوقعه العدو قد أوقع الاضطراب بين القرشيين. هكذا استقبل رسول الله ﷺ أعداءه في بدر، ولم يدرك المشركون ماذا أصابهم، لذا فقد تضعّضوا من الوهلة الأولى رغم كل ما هياؤا للحرب من مقاتلين وخيول وجمال، بينما لم يكن المسلمون يملكون - حسب علمنا - غير فرسين أو ثلاثة، ولم يكن نصيب كل مسلم من أدوات القتال يزيد عن رمح وبضعة سهام.^(٣) ذلك لأنهم أتوا إلى بدر بنية أخرى وقصد آخر.^(٤) ولكن

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٦/٣٣٦؛ كنز العمال للهندي، ١٠/٥٧٩.

(٢) البخاري، الأحكام ٤؛ مسلم، الإمارة ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٤٠.

(٣) حول معركة بدر انظر إلى السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٦٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣١٨-٣٣١.

(٤) البخاري، المغازي ٣؛ مسلم، التوبة ٥٣.

الأعداء عندما جوبهوا بشيء لم يعتادوه حتى ذلك اليوم اضطربوا وذعروا.. وبدأت الأسباب الموجودة في القدر الإلهي تطاردهم وتكيل لهم الصفعات جزاء شرهم بالله. وتكتيك آخر.. فهناك الصلاة الجماعية في جبهة القتال، وهي تنشر روح الاستخفاف بالأعداء، وروح الثقة والاطمئنان للمؤمنين، ولكن كان من الممكن أن يعدها الكفار فرصة. ولكن الوضع لم يكن على الإطلاق كما طمع الأعداء، ذلك لأن القرآن الكريم كان يعطي التعليمات التالية حول هذه الصلاة: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢).

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك. ولتقف جماعة أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتأتي الثانية وتصلي خلف رسول الله.

أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يرون عجباً.. يرون المسلمين يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا بهم يرون الفئة الأخرى ويرون المسلمين يتنقلون من صف الصلاة إلى صف الحراسة ومن صف الحراسة إلى صف الصلاة. إذن، فالرسول ﷺ كان -بأمر من ربه تعالى- يخطط للقتال وللدفاع حتى وهو في الصلاة.^(١)

١. التصرف بتكتم

قال "هتلر" وهو يصف سلوكه العسكري: "لقد كنت أول من اكتشف التكتم في الأمور". غير أن الرسول ﷺ بصورته المثالية، إذ لم يكن في وسع أحد أن يعرف خطته سواء في الهجوم أو في الدفاع ولا أن يعرف استراتيجيته وأهدافه، إذ لم يكن يصرح بوجهته إلا بعد أن يقطع شوطاً في حملته.

وعندما توجه إلى مكة لم يعرف أحد لا من المسلمين ولا من المشركين هدفه بشكل واضح وجلي إلا بعد أن لم يبق بينه وبين مكة إلا مسافة قصيرة. وعندما أشعل في عشرة آلاف موضع عشرة آلاف شعلة دخل الرعب إلى قلوب قريش، ولكن الأمر كان متأخراً جداً

(١) البخاري، صلاة الخوف ١-٣؛ مسلم، صلاة المسافرين ٣٠٥-٣١٢؛ أبو داود، السفر ١٢.

بالنسبة إليهم، إذ كان المسلمون قريبين منهم إلى درجة لم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء.^(١)

٢. شبكة الاستخبارات

ووضع شبكة الاستخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار كانت تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيم وتحلل حالاً. ولم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه. وقد ارتكب حاطب بن أبي بلتعة خطأ، فأرسل إلى أهل مكة رسولاً يخبرهم بمقدم رسول الله ﷺ إليهم، ولكن رسوله -وكانت امرأة- قبض عليها في الطريق. ولم يؤخذ حاطب من قبل أحد، لاسيما وأن الموضوع تم حله. وقد اعترف حاطب ﷺ بخطئه هذا. صحيح أن هذا الصحابي اشترك في معركة بدر، ولكن بدر منه مع هذا الهفوة التي عفا عنها صاحب من لا هفوة له.^(٢)

أجل، شكل الرسول ﷺ لحسابه شبكة الاستخبارات، ولكن لم يعط فرصة لأحد أن يحصل على أي خبر من أخباره. هكذا كانت درجة التكتّم عند الرسول ﷺ.^(٣) ومهما قيل عن التكتّم فالرسول ﷺ هو الذي علمه ربه هذا الأمر، ثم تعلمت منه الإنسانية هذا المبدأ قبل أربعة عشر قرناً. وكان يستطيع أن يوصل الأخبار إلى موضع على مسافة تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة من جمل يعدو بأقصى سرعته، ولكنه كان يوصل الأخبار إليه بوقت أقصر، ذلك لأنه بينما كان الرسول ﷺ في المدينة فإن جيوشه كانت على مشارف الشام. وكان قطع هذه المسافة الطويلة تحتاج إلى عشرة أيام من السفر المتواصل، ولكن رسل النبي ﷺ كانوا يقطعون هذه المسافة في ثمانية أيام فقط، وهذا يدل على مدى قوة شبكة المخابرة التي أرسى أسسها الرسول ﷺ. ولا عجب في هذا فقد كان يطبق ما يرشده إليه الله ﷻ. فالحامل الأول للخبر أو الرسول الأول كان يسرع بجواده يوماً كاملاً وبعد أن يقطع مسافة يوم كامل ينزل عن جواده ويرتاح بعد أن يعطي الخبر إلى الرسول الثاني الذي ينطلق بجواده يوماً كاملاً ثم يعطي الرسالة أو الخبر إلى الرسول الثالث... وهكذا حتى تصل الرسالة أو يصل الخبر إلى موضعه، وهكذا يتم نقل الأخبار والرسائل بوساطة رسل مرتاحين وبخيول مرتاحة في أقصر وقت، ولم يكن هناك حل آخر، إذ أكان من الممكن أن تنتقل الأخبار ما بين مكة إلى فيزان بغير هذه الطريقة؟

(١) البخاري، المغازي ٤٤٨؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٩/٤، ٤٢.

(٢) البخاري، الجهاد والسير ١٤١؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦١؛ أبو داود، الجهاد ٩٨.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣٩/٤-٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٤-٣٣٥.

كان صاحب هذه الفطنة العظيمة يرسم لوحات ملونة تسر لها الأفئدة في كل ناحية من نواحي الحياة تحت تلك الظروف وتلك الشروط في ذلك العهد، فيضطرنا إلى الاعتراف بنبوته وبرسالته. وإلى جانب كل هذا فقد كان كأي عسكري ممتاز يهرع إلى الصلح وإلى السلم متى ما اقتضى الأمر ذلك. وقد تطرقنا إلى هذا فيما سبق باختصار، ونضيف هنا فقول إن القرآن الكريم كان يقول له: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١).

أي خذ بالأسباب ولكن لا تقصر في التوكل على الله، ذلك لأن التوكل دون القيام برعاية الأسباب إنما هو عنوان للكسل ولعدم الإدراك وعدم الإحساس، بينما التوكل بعد رعاية الأسباب يُعد عنواناً للانقياد وللتسليم والارتباط مع الله تعالى، ومع شريعته الفطرية وآيات النظام الكوني ومبادئه، وإدراكاً ورعاية لها.

٣. مراحل التبليغ

في إحدى مراحل التبليغ أمره الله تعالى بـ ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥). إن الله تعالى يعلم الضالين ويعلم المهتدين، أما أنت فقم بواجبك في الدعوة ولا تتدخل فيما وراء ذلك. كانت هذه الآية تقوم بشحن إيمانه وإيمان جماعته. ثم جاءت مرحلة أخرى أمر فيها الرسول ﷺ بإعلان دعوته وبلهجة حادة إن اقتضى الأمر وبإنداز عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤).

هـ- مقاطع صغيرة من حياته

عندما تم إعلان الإسلام زادت الضغوط وسقط بعض الشهداء أمثال سُميّة وياسر وغيرهما. استشهد البعض نتيجة التعذيب أو التجويع أو من ضربة في صدره بحربة أو بنبل، ثم بدأت الهجرات.. الهجرة إلى الحبشة ثم العودة منها ثم الهجرة إلى المدينة وقبلها عام الحزن بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها و وفاة أبي طالب، مما كان يعني بقاء الرسول ﷺ -من الناحية المادية أو الظاهرية- أعزلاً دون حامٍ، والحقيقة أن الله تعالى كان يقطع كل الأسباب الظاهرية وكل الركائز التي كان يستند إليها لكي يتوجه نحو مسبب الأسباب وحده. ذلك لأن من قوانين الفطرة أن التوجه التام نحو مُسبب الأسباب لا يتم في عالم المقربين إلا

بعد سقوط كافة الأسباب. إذن، يجب أن تسقط كافة الأسباب وتنهزم ليتم التوجه نحو الله وحده، واستقراء أسرار نور التوحيد بالميل الفطري وبالاضطرار الجبري لكي يتبلور في وجدانه سر الأحدية.. تمامًا كما حدث للنبي يونس عليه السلام.. لكي يوصله فيما بعد إلى شاطئ السلامة وينبت له شجرة من يقطين وليريه ما يجب أن يراه من نوره العظيم.

أجل، فعندما أخذ منه أباطالب أخذ منه مستندًا وعونًا، وعندما أخذ منه خديجة رضي الله عنها أخذ منه مستندًا وعونًا آخر. ولكي يعطي درسًا قيمًا إلى الأجيال المقبلة كان يهدم كل الأسباب المادية الظاهرية ويوجهه إلى مسبب الأسباب وحده وكأنه يقول له: أنت شخص مرشح لكي تنطق باسم الله فقط، ألا ترى أنني أخذت أباك قبل ولادتك، ثم أملك بعد الولادة ثم جدك؟ أجل، لقد أخذت كل من كان يحملك واحدًا إثر آخر لكي لا يقتحم خيالك أحد غيري، ابحث عني كل وقت وكل حين، وأقبل عليّ وتوجه إليّ فقط وحاول أن تسمعي وراء كل باب تطرقه في هذا الكون.

صحيح أن هذا الطريق الذي أجبره الله تعالى على سلوكه كان طريقًا صعبًا حافلاً بالمشقات إلا أنه لم يكن بالعبء الذي لا يستطيع حمله الرسول المصطفى محمد ﷺ، ذلك لأنه كان بعون من الله تعالى شخصًا قويًا لا يُغلب، قد جعل العجز والفقر جناحين له.

من الحوادث الأليمة التي تعرض لها النبي ﷺ، وشاهد فيها مثالاً للجحود والرفض ما جرى له في الطائف الذي توجه إليه وهو يأمل أن يلقي فيه بعض القلوب الرضية، ولكنه رجع منه والدماء تنزف منه من رأسه حتى قدميه، ثم مقابلته لسته أشخاص من يثرب، وفي السنة التي بعدها لاثني عشر شخصًا في العَقبة، هؤلاء هم أبو الهيثم بن التيهان وأصدقاؤه.^(١) بايعوا النبي ﷺ ورجعوا إلى المدينة لكي يرجعوا في السنة القادمة وهم خمسة وسبعون شخصًا -منهم امرأتان- لكي يبايعوا الرسول ﷺ. كانت نسبية المازنية إحدى المرأتين، وهي المرأة التي سيذكرها التاريخ الإسلامي بكل فخر وتوقير تحت اسم أم عمارة. وكانت الأخرى أسماء بنت عمر.^(٢) ولم تفارق هاتان المرأتان العظيمتان رسول الله ﷺ لا في سفر ولا في حضر، بل إن أم عمارة شاركت في حروب الردة فقاتلت في معركة اليمامة وبيدها السيف وبيطولة كبطولتها في معركة أحد. وقد استشهد ابنها حبيب في هذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٢-٧٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٢/٣-١٨٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٨١/٢-٨٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٢/٣-١٩٧.

المكان من قبل مسيلمة الكذاب عندما أرسله إليه رسول الله ﷺ. ^(١) ثم دعي رسول الله ﷺ إلى المدينة، لقد أصبح القائد على رأس جيشه.

لم يقم حتى ذلك الحين بإيذاء أحد قط لا قولاً ولا فعلاً. بل إنه عندما كان يعطي سكيناً إلى أحد كان يجعل نصله الحاد متوجّهاً إلى نفسه والمقبض متوجّهاً لذلك الشخص لكي لا يرتعب أو يخاف. ^(٢) أجل، لقد كان يراعي كل هذه الدقة في سلوكه ومعاملاته، لم يكن قد آذى طوال حياته أي شخص. ولكن كانت هناك خفافيش أزعجها انتشار نور القرآن ودعوة القرآن فقامت تحاول منع انتشار هذا النور، لذا كان لابد لـ "صاحب القضيبي" أن يستل سيفه في وجه هؤلاء قائلاً: "يا خفافيش الظلام! لن تستطيعوا بعد الآن حجب النور.. ستعيشون أنتم في الظلام.. إذن، فابتعدوا عن ضوء النهار وابتعدوا عن فرسان النور."

كان زعيمًا يختلط بأتباعه وينسجم معهم، وكان قائداً على رأس جيشه. قام بحل المسائل الاجتماعية أول الأمر فأخى بين أصحابه الكرام، وجذب أهل الكتاب إلى صفه ووضع دستور أمان ووطد الصلح معهم، ونشر الثقة والأمن لدى الجميع.

ثم توجه إلى الجيش فكوّن في البداية سرايا صغيرة، ثم بدأ بإرسال السرايا وعيون الإرساد فيما حواليه. والسرايا التي كان عدد أفرادها يقل عن العشرة كانت وظيفتها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات وإيصالها إلى رسول الله ﷺ.

ثم كانت هناك سرايا أكبر عددًا وكانت مسلحة ومتدربة وعلى أهبة الاستعداد على الدوام، حيث نستطيع أن نطلق عليها اليوم اسم "السرايا الضاربة". كانت هذه السرايا تستقصي المعلومات والأخبار أيضًا، ولكن لا بد لها من خوض المعارك عند اقتضاء الأمر، وقد قاد بنفسه هذه السرايا أربع مرات. وكان عدد أفراد السرية يتجاوز أحياناً مئتي مسلح، وكانت وظيفة مثل هذه السرايا إرهاب العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم.

و- أهداف السرايا

كان المسلمون مهئين لكافة أنواع النضال والكفاح. وكان المشركون يضطرونهم بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا الكفاح والنضال. كان الوحي قد بدأ بالنزول قبل ثلاث عشرة سنة، وكان داخلاً إلى السنة الرابعة عشرة. وكان الذين يزعمهم النور يسعون جاهدين لإطفائه

^(١) الإصابة لابن حجر، ٤/٤١٨؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١/٤٤٣.

^(٢) وانظر: أبو داود، الأدب ٨٥، الترمذي، الفتن ٣-٥، مجمع الزوائد للهيتمي، ٦/٢٥٣-٢٥٤.

فيتعرضون في كل مكان للدعوة القرآنية، وعندما يتمكنون من القبض على أي مسلم سرعان ما كانوا يقتلونه. ونحن نذكر اليوم مظالم البلغار ومظالم الروس ومظالم الهنود. نذكر هذه المظالم ونجد في الأقل من يشجب هذه المظالم ويستنكرها، أما المظالم التي كانت ترتكب آنذاك في حق المسلمين فلم يكن هناك من يستنكرها أو يشجبها أو يرفع صوته ضدها، فكل تصرف لقريش كان مقبولاً من قبل الآخرين حتى وإن كان في الدركات السفلى من الظلم والوحشية. ذلك لأن قريشاً كانت سيدة مكة، لذا ففي إمكانهم عمل أي شيء يشتهونه. وقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة هدم هذه الدكتاتورية، لذا هيأ هذه السرايا وبعثها إلى جميع الجهات، وكانت الغاية من هذه السرايا الضاربة الوصول إلى بعض الأهداف المعينة ومنها:

١. الإشعار بالكيان الإسلامي

أي إشعار الجميع بوجوده وبالكيان الإسلامي، وأن المشركين وإن طردوا المسلمين عن مكة إلا أنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإسلام. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).
 إذن، فرسول الله ﷺ كان يريد أن يظهر لهم أن ظلام الجاهلية الأولى في تلك الصحراء الموحشة المظلمة لن يستطيع إطفاء نور الله.

٢. إظهار أن الهيمنة للحق

ثم إنه كان يريد أن يبرهن على أن الحكم ليس لمشركي مكة ولقريش فقط، بل إن لممثلي الحق حصة منه ونصيباً، وسيأتي يوم تخضع فيه القوة بكل ما لديها من أسلحة إلى الحق وتستسلم له، وحينئذ ستكون الكلمة في الأرض بيد الحق وحده، ويسود القانون في الأرض.
 كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن قريشاً ليست على حق ولكنها كانت تستطيع إحراز الغلبة أحياناً على الحق وبصورة مؤقتة لكونها تملك أسباب القوة في يديها. لذا، كان على رسول الله ﷺ إعلان قوة الحق، فكان تشكيل هذه السرايا إعلاناً وإظهاراً لهذا لكل الأطراف حواله، أي إعلان أن أمثال أبي سفيان وأبي جهل وغتبة وشيبة وابن أبي مُعيط والوليد الخ... لا يملكون أي حق لهم على الإنسانية، بل إنهم على العكس من ذلك اغتصبوا من الإنسانية حقها واستغلوها.

٣. قهيئة أساس للإرشاد

كان من وظائف هذه السرايا إزالة العقبات من أمام طريق الدعوة. أجل، فبفضل هذه السرايا التي كانت تتجول هنا وهناك استطاع أن يمسك بالنظام والانتظام في يده، وأن يرسل الدعاة والمبلغين والمرشدين إلى كل مكان، وأن يؤمن تجولهم بين المدن والقرى دون خوف أو وجل، ويهيء لهم جواً هادئاً لكي يقوموا بمهماتهم. لذا، كان الرسول ﷺ يرسل السرايا بشكل مستمر للمناطق المحيطة بالمدينة من أجل هذه الغايات، وبعد الهجرة وحتى اصطدامه بأعدائه في معركة بدر كان قد أرسل سرايا عديدة ضاربة، ففي بضعة أشهر كانت هذه السرايا تظهر في أماكن بعيدة لم يكونوا يقطعونها آنذاك إلا خلال شهر، أو تظهر بمقربة من مكة وكأنهم أشباح أو ملائكة ظهرت ثم اختفت بسرعة، مخلفة وراءها الرعب عند العدو الذي بدا وكأنه يُسحب إلى معركة بدر وهو مشلول من الخوف.

٤. إقرار الأمن

كان النهب والسلب سائداً في تلك الأيام في الصحراء. فالحق للقوة، ولم يكن للضعيف والمظلوم حق الحياة، فالذي يملك القوة كان يستطيع سحق الآخرين. وأمام هذا الأمر كان الرسول ﷺ يخطط الآتي: يجب أن تتجول السرايا والمفارز في كل مكان دون أن تمتد يدها بأي سوء لأي شخص لا لماله ولا لعرضه ولا لشرفه. أجل، سيمر أناس مسلحون من أمام البيوت والمساكن، ولكن كرمز للأمن وللأطمئنان دون أن يمس أحدهم بسوء. إذن، رأى الجميع أن الصحراء يمكن أن تكون شاهدة لشيء آخر غير السلب والنهب، ومن كان يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير النبي ﷺ؟ وهكذا عرف الجميع بشكل جيد بأن الصحراء لم تعد ملكاً لمشركي قريش وحدهم، بل إن لمحمد ﷺ نصيباً وحصّة وحقاً، وسيزداد هذا الحق على مر الأيام ويكبر كلما انتشر النور حتى يكون له في كل بيت وفي كل قلب أثر.

ز- السرايا

١. السرية الأولى وحزمة

من أجل تحقيق هذه الأهداف قام الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة المنورة بقليل بتشكيل السرية الأولى التي ألفها من مائة شخص، وأسند قيادتها إلى عمه حمزة ؓ. وأسس الرسول

ﷺ في تلك الأيام شبكة استخبارات واسعة بحيث لو طار طائر في الصحراء لأتاه خبره. في تلك الأيام مرت قافلة فيها أموال كثير من المهاجرين. مرت هذه القافلة قرب المدينة وأمام أنظار المسلمين وكأنها تتحداهم. وهنا تعرض لها سيدنا حمزة ؓ، ومع أنه لم يلحق أذى لأي منهم إلا أن الأعداء ارتعبوا رعباً كبيراً، وأسرعوا بالفرار دون أن يلقوا نظرة وراءهم.^(١) لندعهم يفروا ولنرجع إلى الذين شاهدوا هذا الأمر من سكان المدينة أو سكان القرى القريبة. لقد تأكد لديهم وجود قوة أخرى غير قوة أهل مكة. ونرى من نافلة القول الحديث عن الأثر النفسي الذي تركته هذه الحادثة في نفوس مشاهديها. كان أهل مكة يفرون على الدوام في أثناء هذه الحركات، وعندما يفرون والمسلمون في أثرهم، كان المشاهدون يبقون في حيرة وعجب ودهشة.

أجل، كان الرسول محمد ﷺ كأي قائد استراتيجي يطارد أعداءه ويسحر -بهذا المعنى- الجميع ويأخذهم تحت تأثيره، فكانت القلوب تلين للإسلام على مر الأيام، وتقبل أفواج ثم أفواج من القبائل لتدخل إلى الإسلام. أصبحت الطرق آمنة، فقد أظهر الإسلام قوته وبأسه، فعندما أصبح الإسلام يمثل الحق أظهر القوة التي تحفظ هذا الحق، وبدأ الجميع يفكرون بشكل مختلف عن السابق.

٢. السرية الثانية

ثم ما لبث أن شكل سرية ثانية على رأسها سعد بن أبي وقاص ؓ. ولم يتأذ أحد من هذه السرية أيضاً، لأن الغاية كانت إرسال القوة وإنزالها في الموضع المعين، لكي تعلم قريش التي كانت القوة دينها الوحيد أن القوة إن أظهرت فائدتها في شيء فلن تفيد في كل شيء. وكان الهدف أيضاً هو مقابلة هذه القوة بالقوة التي تمثل الحق. أي القوة التي لا تنزلق إلى الجبر وإلى الظلم وإلى الجبروت وإلى الغدر وإلى الباطل، بل القوة التي تبقى بجانب العدل وبجانب الرحمة، إلى درجة أن المسلمين لو شعروا ببعض الحاجة إلى الحليب استأذنوا صاحب الغنم أو راعيها ودفعوا له من المال مقابل ذلك. كان هذا التصرف من المسلمين شيئاً جديداً وغريباً على البدو لم يشاهدوه ولم يعرفوه من قبل، فكانوا يشاهدون هذه التصرفات وهم في ذهول: أهؤلاء هم الملائكة الذين تحدث عنهم النبي إبراهيم وقد نزلوا من السماء أم ماذا؟

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٢٨٦.

٣. سرية عبيدة بن الحارث

ثم شكل سرية وضع على رأسها عبيدة بن الحارث، وهو ابن عمه الحارث بن عبد المطلب. هذا الشخص الذي سيكون من أوائل شهداء بدر، وعندما جيء به إلى رسول الله ﷺ في معركة بدر والدماء تنزف من يده المقطوعة لم يكن قد مات بعد، ولكنه كان قلقاً، فقال للرسول ﷺ: "ألست شهيداً يا رسول الله؟" فقال ﷺ: «بلى»^(١) هذه السرية التي قادها عبيدة بن الحارث ﷺ وصلت إلى بطن رابغ حيث أوقع الرعب في قلوب الأعداء ثم رجع.^(٢) وكان هذا مفاجأة قاسية لقريش ولأدلاء قوافل قريش، لم يتخلصوا من تأثيرها مدة طويلة.

٤. كان هو القائد

كانت السرايا السريعة الضاربة تترى. وبعد هذه السرايا شكل الرسول ﷺ سرية تتألف من قوة قوامها مئتا مسلح قادها بنفسه، وخرج يهدد بها قافلة لقريش كانت متوجهة للشام. وخطط كل شيء بدقة وجعل الطرق كلها تحت رقابته، بحيث أنه لو لم يسمح لقافلة قريش بالمرور لما استطاعت ذلك. وكان هذا تهديداً أرعب قريشاً وأفزعها، ثم رجع الرسول ﷺ دون أن يمس أحداً بأذى.^(٣)

ثم رتب سرية أخرى بقوة أصغر وللهدف نفسه، فوصلت إلى بُواط^(٤) وأرهبت أعداء الله ﷺ ثم رجعت.^(٥) وقابل أعداءه بالطريقة نفسها في العُشيرة، ليذكر الجميع قبل عودته إلى المدينة أنه أصبح ينظم الأمن والأمان في الصحراء.^(٦)

٥. سرية عبد الله بن جحش

والسرية الأخيرة عقدها تحت قيادة عبد الله بن جحش الذي كان ابن عمته.^(٧) كان يختار القريبيين منه لمثل هذه المهمات، وكان يرسخ قرابة العقيدة بقرابة الدم. ذلك لأن

(١) المستدرك للحاكم، ٣/١٨٨؛ المغازي للواقدي، ١/٦٩-١/٦٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٣٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤١؛ المغازي للواقدي، ١/١٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤١؛ المغازي للواقدي، ١/١٢.

(٤) بُواط: جبال من جبال جهينة، بقرب ينبع. بينها وبين المدينة نحو أربعة برد، وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٠١.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤٨-٢/٢٤٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٠٢.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٥٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٠٤-٣/٣٠٥.

المسلمين لم يقاتلوا حتى ذلك الحين أعداءهم، وكان قتال الأقرباء وقتلهم مخالفا لقانون الصحراء ونقضا كبيرا له، لذا فقد كانت معركة بدر الكبرى مهمة جداً، وكان الطريق إلى بدر يمر من هذه السرايا. وقد عين على رأس هذه السرايا التي كانت الممر إلى بدر الكبرى أقرباء مثل سيدنا حمزة ؓ وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن جحش، لأنه أراد أن يحمل أقرباء هذه المسؤولية الثقيلة والمهمة الصعبة التي كانت تتناقض مع قانون البداوة وقانون الصحراء، كما قاد بنفسه ثلاثاً أو أربعاً من السرايا.

كان عبد الله بن جحش ابن عمه الرسول ﷺ. وأصبح فيما بعد البطل المغوار في معركة أحد، ولكنه كان ضعيف البصر يشكو من قصر نظر حاد، فلا يستطيع أن يرى سوى بعض السواد، ومع ذلك فلم يتخلف عن أي معركة، وقاتل في معركة بدر بكل شجاعة، وعندما رأى الهزيمة في صفوف المسلمين يوم أحد لم يتحمل وبادر يقاتل بكل ضراوة. يقول سعد بن أبي وقاص ؓ: "إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخلينا في ناحية فدعا سعد فقال: "اللهم إذا لقيت العدو غداً فلّقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده" ^(١) فأقتله فيك وأخذ سلبه". فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت: يا عبد الله! فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقت". قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط. ^(٢)

إذن، فهذا هو عبد الله بن جحش الذي كان على رأس سرية نخل. حيث أرسله الرسول ﷺ مع إثني عشر من أصدقائه إلى موضع يدعى نخل يقع على بعد ٥٠٠ كم من المدينة، وكان هذا الموضع قريباً من مكة. كان على السرية أن تذهب إلى هناك ثم ترجع بعد ترصد أحوال أهل مكة. ولم يكن في الإمكان القيام بمثل هذه المهمة دون أن يأخذ الإنسان الموت في حسبان عدة مرات. لذا، أبدى الرسول ﷺ فطنته في الاختيار المناسب، إذ وضع على رأس هذه السرية الشخص المناسب، فقد كان من الضروري أن يكون هذا الشخص فرداً يستخف بالحياة ولا يهاب الموت، وكان عبد الله بن جحش هذا الشخص. أعطاه الرسول ﷺ كتاباً فيه أوامره حول وظيفة هذه السرية ومهمتها، على أن لا يفض

(١) الحَرْد: الغضب.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير، ٣/١٩٥، الإصابة لابن حجر، ٢/٢٨٦-٢٨٧؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ٩/٣٠١.

هذا الكتاب ويُقرأ إلا بعد الوصول إلى الهدف. كما أوصاه ألا يكره أحدًا على الاشتراك معه في هذه السرية، بل يجب أن يكون الجميع من المتطوعين. وقد اعتذر أحدهم من الذين قبلوا الاشتراك سابقًا وتخلّى عن الاشتراك معهم، أما الباقيون فقد نفذوا الأوامر وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موضع نَحْل، وفتحوا رسالة الرسول ﷺ وقرأوها، وطبقوا ما جاء فيها. ولكن حدث حادث عارض لم يكن في الحسبان قتل نتيجة أحد المشركين، واستولوا على أموال الفارين، وجاءوا بها إلى الرسول ﷺ. وقد حدث هذا الحادث بشكل فجائي، ولم يكن الرسول ﷺ قد أمرهم بالقتال، واستغل أهل مكة هذه الحادثة وبالغوا فيها وقالوا: "لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال." فلما أكثروا نزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧).^(١)

ح- نتائج السرايا

١. تحقيق السيادة

ما إن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى بدأ بترتيب الحركات التعرضية السريعة، حتى خنس أعداؤه، وشاع بينهم الرعب والفرع، وهدد حياتهم الاقتصادية وجرحهم إلى الأزمات المالية، وساق الحوادث نحو معركة بدر الكبرى، وأسس خلال ذلك شبكة استخبارات واسعة، بحيث أن قريشًا كانت تخشى أن يكون الرسول ﷺ على علم بما يجري حتى في بيوتهم. وكان الموضوع الذي يتحدث به الجميع في كل مكان هو أن من يقوم بعمل مثل هذه الاستخبارات، لا بد أن يعلم بكل ما يعمل أعداؤه. وكان هذا أمرًا مقلقًا جدًا بالنسبة لهم.

كان يقال لنا عندما كنا في الخدمة العسكرية بأن التحارب يعني التخابر. فإذا كنت تملك مؤسسة استخبارية جيدة، ونظامًا جيدًا للمواصلات، تكون قد أمنت نصف النصر. هذا إن كانت أخبارك لا تصل إلى عدوك، وكنت تحصل على أخبارهم على الدوام، وتحيط مركز القيادة علمًا بأخبارهم أولاً بأول. ومع أن التكنولوجيا تقدمت كثيرًا في هذا العصر إلا أن من الصعب أن توصل الأخبار دون أن يعلم بها الطرف المقابل. بينما استطاع الرسول ﷺ أن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٥٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٠٦.

ينشئ في تلك الظروف البدائية شبكة استخبارات جيدة، استطاعت أن توصل الأخبار إليه أولاً بأول، وبسرعة فائقة، وضمن جو من الأمن والثقة، فكما كان الوحي يأتيه بكل أمان وثقة بوساطة ملك رفيع المنزلة مطاع ثم أمين، كانت شبكة استخباراته تمتد بالأخبار بنفس الثقة والدقة، وكان على ارتباط دائم بهذه الأخبار، لم تكن أخباره تصل إلى أعدائه بينما كانت أخبار أعدائه تصله أولاً بأول.

هناك قادة يعتبرهم الغرب من الدهاة ومن العباقرة أمثال قيصر وهنرييل ونابوليون وهتلر. ولكن التاريخ يشهد أن أي أحد من هؤلاء لم يؤسسوا شبكة استخبارات جيدة بالمستوى الذي أسسها الرسول ﷺ، ولم يضعوا أعداءهم تحت مراقبتهم كما فعل ﷺ. وليس هناك شاهد واحد في التاريخ على تسرب خبر واحد من أخباره إلى الأعداء، وإلا لم يكن بمقدور حفنة من المؤمنين الانتصار على كل أولئك الكفار والفجار. فعناية الله وتوفيقه تكون بنسبة الأخذ بالأسباب وبالتدابير، ولكونه قدوة لنا وأسوة حسنة، فإنه كان يتصرف ضمن دائرة الأسباب.

لنرجع إلى الصدد: لقد رأينا في الحروب العالمية أن وضع موانئ بلد ما، ووضع تجارته تحت التهديد وضرب مقاطعة اقتصادية عليه، سيضيق الخناق على إنسان ذلك البلد، ويجعله غير واثق من غده، وهذا شيء مهم. أجل، فعندما تبدأ بالنضال مع أعدائك الذين يرومون شرب دمائك، لا بد أن تسعى لشل حركتهم أولاً. لهذا كان الرسول ﷺ يروم شل حركة أعدائه بإرسال هذه السرايا السريعة الحركة. لم يعد هناك أمان لأهل مكة، وبدأ الأعراب والبدو في الصحراء يقولون في أنفسهم لم يعد باستطاعة أهل مكة أن يحافظوا علينا، ولم يعودوا مبعث أمن لنا، والظاهر أن مصير الناس انتقل إلي أيدي أخرى، لذا فمن الأفضل لنا أن نتقرب إلى هؤلاء. أجل، بدأوا بالتفكير على هذا النحو، لذا بدأوا يأتون إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً ويعلمون إسلامهم.

كانت القوافل تحت التهديد على الدوام على الرغم من عدم إيذاء أحد منهم، هذا عدا استثناءً واحداً حدث في موضع نخل حيث مات أحد البائسين بسهام المسلمين.

٢. ذبوع الأمن

بدأ الرسول ﷺ يحقق جميع أهدافه من إرساله هذه السرايا، فقد ظهرت قوة جديدة في الصحراء أثبتت وجودها. فأمام قريش الظالمة كان هناك محمد ﷺ وجماعته. ومع أنه بدأ يمثل القوة، ويطارد اللصوص والناهبين، إلا أنه لم ينحرف إلى الظلم أبداً، بينما كانت القوة

في الجبهة المقابلة عنوان الظلم والاعتداء، إذ يغيرون ليلاً، فينهبون ويقتلون الضعيف، دون الالتفات إلى أنين الضعيف وآهاته.

كانت هذه القوة من طراز آخر، فكأنها قوة نزلت من السماء، فعلى الرغم من توفر القوة عندها فهي تقف عند خط الحق والعدل وتحترم الحقوق، وكان التاريخ يشاهد للمرة الأولى مثل هذه الرعاية والاحترام للحق وللحقوق. وكان هذا يتم بيد محمد ﷺ، بينما كان غيره يضع كل يوم ما يناسبه من القوانين، ويقدمها على أنها هي التي تمثل "الحقوق". علماً بأن محمداً ﷺ كان يؤمن بسمو وعلو القوانين والحقوق التي وضعها الله تعالى.. احترم هذه القوانين وهذه الحقوق، ولم يمد إصبعه إلى أي حرام أو إلى أي محذور، وقد شاهد هذا إنسان الصحراء وكل إنسان، وشهده البدو. كانت هذه السرايا المسلحة تمر أمام الخيام، ولكنها لا تعرض لا إلى أي امرأة أو إلى أي شابة ولا لأي مال، ولا ترتكب أي ظلم مهما كان ضئيلاً. لقد كان الرسول ﷺ يهدف أن يرى الناس هذا، وبدأت الثقة تنتقل شيئاً فشيئاً من مكة إلى المدينة، ذلك لأن "الأمين" كان هناك. لم تعرف مكة قدر "الأمين".. الأمين الذي ندعوه نحن "محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين". لقد كان الآن في المدينة، وكان الأمن والأمان عنده. هذا ما كان يفكر به البدو والأعراب ورجال القبائل، لذا بدأوا يتوجهون نحو المدينة، بينما فقدت قريش كل مظاهر الثقة المعقودة لها سابقاً. لم تكن عاجزة عن إعطاء الأمن والثقة للآخرين فقط، بل كانت عاجزة عن تأمين قوافلها هي، إذ كانت تحت تهديد دائم. وكان هذا الأمر يؤدي إلى تحليل دائم في صفوف المشركين. وكلما شاهد هذا أهل مكة ركبهم الغضب والهم.

٣. سرعة السيطرة على الأمور

إن إثارة العدو ومضايقته ودفعه إلى الحركة قبل الأوان مسألة مهمة، لأسرد عليكم حادثة جديدة، لقد سألوني مرات عديدة: "هناك حركات في تركستان وأوزبكستان وجورجيا وداغستان، كما أن هناك حركة ما في القرم. أهذه هي الأيام السعيدة التي وعدنا الأنبياء والأولياء، والتي قالوا أنها ستكون قبيل يوم القيامة؟ أيتم التوجه إلى مثل هذه الأيام؟ أي هل تستطيع الأمم الأسيرة الحصول على حريتها وعلى حقوقها المشروعة؟ صحيح أن التوجه حالياً هو هذا التوجه، ولكن الأعداء هم الذين يضعون بعض سيناريوهات هذه الحوادث، ويهيئونها لوضعها على المسرح الدولي. أجل، إن الأعداء هم الذين يقومون بتخطيط الحركات في بلدان إخواننا في الدين والدم، ذلك لأننا لا نزال هناك ضعافاً، كالفراخ داخل

البيض، أو كالبيض تحت الدجاج. فهم يقومون بإثارة حفنة من المشردين والأوباش ويدفعونهم إلى التظاهر في الشوارع، ثم يدفعون بالوحدات المسلحة علينا ليحطموا رؤوسنا ونحن بعد ضعاف، ذلك لأن بعضًا من رؤوس هولاء ذهبوا من جورجيا إلى بلغاريا وظهروا في سُومَن^(١) وفي صوفيا حيث صرحوا هناك: لقد ثرنا نحن في روسيا واستطعنا انتزاع بعض حقوقنا، ثوروا أنتم وانتزعوا حقوقكم. هذه مسألة مهمة، وهي جهود لسحبنا إلى جهة معينة للقضاء علينا، ولكنهم لا يعرفون أن العاقبة للمتقين و"الحق يعلو ولا يعلى عليه". وتتمنى من الله تعالى أن يجعل كيدهم في نحركم. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يهدف من تحركاته هذه إثارة أعدائه الذين بدأوا يقولون إن قوافلنا في خطر وحياتنا الاقتصادية تحت التهديد، وبدأت الصحراء تدخل في حكمه شيئاً فشيئاً، لذا يجب أن نحسب حسابه. أجل، كان أبو جهل يقول لهم هذا، وعندما أراد بعضهم الرجوع عن القتال في بدر قال لهم: "والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُزُر، وننطمع الطعام ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها. فامضوا." (٣)

كان هذا هو هدف رسول الله ﷺ، وكان القرآن يعلمه هذا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الأنفال: ٤٤).

أي أن الله تعالى يقول لهم بأنه قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين لكي يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ويسوقهم إلى مقابلة غير محسوبة من قبلهم. فالله تعالى كان قد أصدر حكمه ولا بد من تنفيذه، أي إن العاقبة كانت مؤكدة لا يمكن الهروب منها، وكان الله يستدرج أعداء الإسلام إلى هذه النتيجة، لذا سيجد هؤلاء الأعداء أنفسهم فجأة وجهًا لوجه مع المسلمين في بدر الكبرى في وقت لم يحسبوا حسابه ولم يتوقعوه من قبل، إذ لم يكونوا يعرفون استيراتيجية الحرب لدى الرسول ﷺ. لقد

(١) سُومَن: مدينة في بلغاريا. وصوفيا هي عاصمة بلغاريا.

(٢) قال المؤلف هذا الكلام في ١٩٨٩ عندما بدأت الحوادث في الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٧٠؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٢٤.

أبعدوه وأخرجوه من بلده وها هم الآن يقفون أمامه وهم يرتجفون. كان يرتب السرايا منذ سنة واحدة ليحق الحق، وليسترد منهم ما أخذوه وليحطم معنوياتهم. لم يكونوا يعرفون عنه ناحيته الحربية والعسكرية، بعد ساعات سيعلمون هذا، ولكن لن يفيدهم هذا. أجل، كان أمامهم قائد حربي لم يعرفوه بعد، كما قابلتهم خطة حربية لم يعرفوها من قبل، فسقطوا كأوراق الخريف.

٤. هيئة الحوادث لبدر

ها هم الآن في بدر الكبرى.. لم يكن الرسول ﷺ قد انتهى إلى بدر مثل أي إنسان عادي آخر أو مثل أي قائد حربي آخر. ذلك لأنه كان يعلم جيداً فيما هو مقبل عليه، كان قد أتى إلى هناك وهو يعلم أن ساعة الحساب مع أعدائه قد أزفت وأن صراعه معهم قد بات وشيكاً، وأنه حتى مجيئه بدرًا كان قد رتب سرايا عدة قامت بحركاتها ومناوراتها السريعة بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وشل روحهم المعنوية في كل مكان وفي كل ناحية وفي كل بيت، وجعلهم يشكون في قوتهم وقدرتهم إلى درجة أنه جعلهم يقولون "لم يعد هناك أمان في مكة وما جاورها". وهكذا أصبح الرأي العام للعرب في البادية بجانبه. لقد انتقل صمام الأمن إلى يد "الأمين". هذا ما بدا الجميع بقبوله. ألم يكونوا يلقبونه في الجاهلية بـ "محمد الأمين"، ويعدونه الممثل الوحيد للأمانة؟ لقد كان أميناً في الأرض وأميناً في السماء كذلك. وقد قال في أحد الأيام متحدثاً بنعمة الله عليه: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»^(١)

لقد بدأت البادية تعرف جيداً من الأمين وأمين الأمن.. أجل، لقد كان "الأمين" في المدينة.. كانت السيادة تنتقل إليه.. إلى السيد القرشي في المدينة.. كان سيد قريش أيضاً وسيد بني هاشم، بل سيد الإنسانية كلها وسيد الوجود كله... كان هو سبب الوجود وعلته وغايته فهو الذي قيل فيه: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك»^(٢) صحيح أن هذا ليس حديثاً صحيحاً إن نظرنا إليه من ناحية علم الحديث، إلا أن معناه من ناحية مطابقتها للواقع يمكن أن يرد على الدوام. أجل، لولاه لما ظهر معنى للكون ولما فهم هذا المعنى، ولما تم النفوذ إلى حقائق الأشياء، لما عرف معنى الدنيا ولا معنى الآخرة، ولا معنى الضمير ومعنى الإنسان. لولاه لكانت الدنيا شبيهة بمأتم، كان كل ميت سيغرقنا في الحزن، وكل حادث

(١) البخاري، المغازي ٦٦؛ مسلم، الزكاة ١٤٤.

(٢) كشف الخفاء للعجلوني، ١٦٤/٢.

مؤلم يكتُم انفاَسنا، لقد تعلمنا منه كيف ننقذ أنفسنا من الظلام، ونسرع إلى ميدان النور. هذه الدنيا التي إن نظرنا إلى جوانبها المظلمة على ذاتها رأيناها قطعة من جهنم ولكنها أصبحت بفضل جنة لنا، فقد تعلمنا من بيانه المضيئ أن الإيمان يحيل حتى الدنيا إلى جنة، وتعلمنا منه أن كل مؤمن يحمل نواة من نوى الجنة، بحيث تجعل هذه الحياة الدنيا شبيهة بحياة الجنة. تعلمنا هذا منه فوصلنا إلى شاطئ الطمأنينة والسكينة، تعلمنا منه أن اطمئنان القلوب يكون بذكر الله ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

أجل، إن السعادة لا تتحقق فقط بالرفاه المادي وبوفرة المال وبامتلاك الدور والعمارات وبيوت العطل الصيفية، بل بالإيمان وبالسعادة القلبية والتمسك بالقيم الإنسانية، حيث ترسو القلوب إلى شواطئ الاطمئنان وتهدأ الرغبات وتنتهي الطلبات. وإلا فلو أعطيت الدنيا بكاملها لإنسان واحد لما انتهت رغباته وما سكنت شهواته. وكان هو معلمنا في كل هذه المسائل، وكما يقول الشاعر الشهير محمد عاكف:

المجتمع مدين له.. والفرد مدين له.

والبشرية جمعاء مدينة لذلك المعصوم.

يارب! احشرنا يوم القيامة بهذه الشهادة.

كانت قلوب أصحابه الذين توجهوا معه إلى بدر مملوءة بالشوق إلى الجنة، إلى درجة كانوا وكأنهم يرون تلالها وجبالها. كانوا قد تهيأوا جيداً، ووصلوا إلى بدر وهم في أفضل درجات الرضى والاطمئنان.. لقد أصبحت الضمائر متوجهة إليه ومقبلة عليه.. لقد وجدت الإنسانية ضالتها في محمد المصطفى ﷺ سواء أكان في المدينة أم في مكة.. لقد بدأ عهد الأمين.

ثم سيأتي يوم يقول فيه لعدي بن حاتم: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟» فيقول: لم أرها وقد أنبت عنها. فيقول: «فإن طالت بك حياة لتزيرنَّ الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.»^(١)

لقد كان هذا العهد الذي تكلم عنه وأشار إليه قد بدأ فعلاً منذ ذلك الوقت، فالحركات العسكرية الكثيرة التي أجراها وطدت الأمن أولاً ثم أرسى أسس معركة بدر.

لم يتأذ أحد من هذه الحركات العديدة ولم يفقد أحد أمنه واطمئنانه، فمع أن هذه السرايا كانت تظهر هنا وهناك بسرعة البرق وتؤكد على وجودها، إلا أنها كانت تزرع الأمن

^(١) البخاري، المناقب ٢٥، المسند للإمام أحمد، ٤/٢٥٧، ٣٧٨.

والاطمئنان، إذ لم يكن أفراد هذه السرايا جماعة نهب وسلب، بل الجنود الأمناء لمحمد ﷺ، أي فريق الأمن والأمان، وضد جماعات النهب والسلب، وضد الأشقياء والشقاوة، فهم لا يخلفون وراءهم سوى آثار الاطمئنان والأمن، حتى يتساءل الجميع: من أين أتت هذه الرحمة؟ كانت هذه الرحمة آتية من سحب رحمة محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، وكانت هذه السرايا هي رعوده وبروقه، وكانت الأنوار المنتشرة منها تكتب اسمه.